



جوانب متفرقة من فلسفة التاريخ

أستاذ البصيرة
عبد الوهاب حسين



جوانب متفرقة من فلسفة التاريخ

بعد أن بيّن موسى الكليم ﷺ لقومه المستضعفين من بني إسرائيل استراتيجية المقاومة للتهديدات الجديدة القديمة التي قصدهم وتوعدهم بها فرعون الطاغية وقومه المتواطئون معه على الظلم والفساد والراضين بما توعّد به فرعون بني إسرائيل من الاجراءات الأمنية القاسية الجائرة، بيّن موسى الكليم ﷺ لقومه بعض الجوانب الرئيسية ذات الصلة بالموضوع من فلسفة التاريخ، كإضاعة وعي وهداية، ولشدّ أزرهم وتسليّة قلوبهم وتعزيزتهم بالرجاء وتقوية عزمهم وإرادتهم على المقاومة والثبات والصمود أمام المخططات الفرعونية القمعية والإرهابية، والجوانب هي:

١. قوله: ﴿الْأَرْضَ لِلَّهِ﴾^(١) أي: أن الله جلّ جلاله هو الذي خلق الأرض وكونها بجميع ما فيها من الكنوز والخصائص وما تدّخره في جوفها وما تخرجه على سطحها وخلق الفضاء المحيط بها والسماء التي فوقها وهو المدبّر لجميع شؤونها وأحوالها، وهو المالك المطلق لها، فهي ليست لفرعون ولا لقومه حتى يملكوها ويتحكموا فيها كما يشاؤون فيمنحوها من يشاؤون ويمنعون التمتع بها من يشاؤون. وأن الله جلّ جلاله هو المدبر للمسيرة التاريخية للإنسان على وجه الأرض، وهي خاضعة لإرادته ومشيئته وسلطانه، كما هو عالم الطبيعة، وأنه يديرهما - المسيرة التاريخية وعالم الطبيعة - بمقتضى الحكمة الإلهية البالغة والرحمة الإلهية الواسعة، وأن جميع الحوادث والظواهر في عالم الطبيعة وفي المسيرة التاريخية، تجري وفق السنن أو القوانين الإلهية الحاكمة لها.

٢. قوله: ﴿يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٢) أي: أن الله جلّ جلاله يداول السيطرة على الأرض كلها أو في بقعة من بقاعها بين الناس وينقلها بينهم نقل الموارث، وفق مقتضيات حكمته ومشيئته وما تجري عليه السنن التاريخية، وأن الله تبارك وتعالى مع المتقين، وقد جرت سنته التي لا تبدل لها على أن يخصّ المتمسكين بالتقوى من عباده بحسن العاقبة والنهاية المحمودة في الدارين الدنيا والآخرة،

١. الأعراف: ١٢٨.

٢. نفس المصدر

وفي العبارة وعد من موسى الكليم ﷺ لبني إسرائيل بالنصرة من الله ﷻ والنصر على الأعداء، وتذكير لهم بما وعدهم الله ﷻ من إهلاك فرعون وجنوده وتوريثهم الأرض والسلطة والثروة، وحثّ لهم على التقوى، والمعنى إن استعنتم بالله سبحانه وتعالى وصبرتم في ذات الله على ما يهددكم به فرعون من الشدائد والمصائب والمحن، واتقيتم الله سبحانه وتعالى وأطعتموه فيما يأمركم به وينهاكم عنه وأديتم ما عليكم من التكاليف الشرعية وعملتكم ما يجب عليكم عمله، ضمنتم حسن العاقبة والنهائية المحمودة في الدارين الدنيا والآخرة، وأن يورثكم الأرض التي ترونها في أيدي آل فرعون، مصر والشام، التي تتصف بالخصب وكثرة المياه والثروة العظيمة الطائلة، كما أورثها فرعون وقومه من قبل، كما أنكم تساهمون بذلك في التمهيد والإعداد لإقامة دولة العدل الإلهي العالمية التي وعد الله ﷻ بها عباده المؤمنين المستضعفين في نهاية المطاف للمسيرة التاريخية التكاملية، وهو وعد إلهي أنجزه الله ﷻ لبني إسرائيل في الوقت الذي أرادته حين توفرت الشروط بمقتضى حكمته البالغة ومشئته النافذة في خلقه.

وأيضاً فإنه وفق السنن الإلهية الحاكمة للمسيرة التاريخية، فإن الله ﷻ سيورث الأرض بشكل كامل لمن يشاء من عباده المتقين في نهاية المسيرة التاريخية التكاملية للإنسان على وجه الأرض، فقد قضى قضاءً حتمياً لازماً وضرورياً، بأن العاقبة الحسنة والنهائية المحمودة بالسيطرة التامة الكاملة على الأرض، سوف تكون لعباده

المؤمنين الصالحين المتقين، بأن يقيموا دولة العدل الإلهي العالمية على الأرض في نهاية المسيرة التاريخية التكاملية للإنسان على وجه الأرض، وذلك بعد طول الاستضعاف والابتلاء، يقول العلامة الطباطبائي: «وكون العقابة مطلقاً للمتقين من جهة أن السنة الإلهية تقضي بذلك، وذلك أنه تعالى نظم الكون نظاماً يؤدي كل نوع إلى غاية وجوده وسعاده التي خلق لأجلها، فإن جرى على صراطه الذي رتب عليه، ولم يخرج عن خط مسيره الذي خط له، بلغ غاية سعاده لا محالة. والإنسان الذي هو أحد هذه الأنواع، أيضاً حاله هذا الحال، إن جرى على صراطه الذي رسمته له الفطرة واتقى الخروج عنه والتعدي منه إلى غير سبيل الله بالكفر بآياته والإفساد في أرضه، هداه الله إلى عاقبته الحسنة وأحياه الحياة الطيبة، وأرشده إلى كل خير يبتغيه»^(١)، وفي الحديث الشريف عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «وجدنا في كتاب علي عليه السلام: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾»^(٢) وأنا وأهل بيتي الذين أورثنا الله الأرض ونحن المتقون والأرض كلها لنا»^(٣) وفي العبارة أمر لبني إسرائيل بالتقوى .

وما سبق يفيد أموراً عديدة، منها:

١. تفسير الميزان، العلامة محمد حسين الطباطبائي، جزء ٨، صفحة ٢١٢

٢. الأعراف: ١٢٨

٣. تفسير العياشي، جزء ٢، صفحة ٢٥

أ. وجوب وضرورة أن يدافع المؤمنون الصالحون عن أنفسهم وحقوقهم ومصالحهم، وأن يدفعوا عن أنفسهم الظلم والجور والطغيان، ويرفضوا كل صنوف الإذلال والإهانة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، لأن يستسلموا ويخضعوا لحكم الأمر الواقع المفروض عليهم رغماً عنهم وبغير رضاهم، ويصابوا بالخيبة والخنوع واليأس، فإنه ليس من صفات المؤمنين الصادقين وليس من أخلاقهم الحميدة ونقيض لوازم العقيدة الإسلامية الصحيحة والشرع الحنيف، ومخالف لمقتضى السنن الإلهية الحاكمة على المسيرة التاريخية التكاملية للإنسان، التي تشير إلى أن موازين القوى غير ثابتة، وأنها في تغير مستمر تبعاً للظروف والعمل وفق السنن التاريخية في تحصيل القوة والانتصار على كافة الأصعدة، فالقوي يتحول إلى ضعيف والضعيف إلى قوي، والمنتصر يتحول إلى مهزوم والمهزوم إلى منتصر، والحاكم يتحول إلى محكوم والمحكوم إلى حاكم، والمتقدم يتحول إلى متخلف والمتخلف إلى متقدم، ونحو ذلك، قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٩) **إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ** وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) **وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ** (١) أي: ثقلوا أيها المسلمون بالله سبحانه وتعالى وبدينكم الإلهي الحنيف وبأنفسكم، وامضوا على عزيمة الإيمان بالنصر والغلبة

١٠. آل عمران: ١٣٩-١٤١-

وتصلبوا على نضال عدوكم ومقاومته، ولا تستكينوا لعدوكم وتخضعوا له وتضعفوا عن قتاله ومقاومته، ولا تحزنوا لما يصيبكم من الأذى وما فاتكم من الدنيا وما تمنون به من الهزيمة أو تقدمونه من الخسائر والتضحيات والشهداء، فهذه سنة الحياة، مرة تنتصرون ومرة تهزمون، تقدمون التضحيات والقرايين من أجل دينكم ووطنكم ونيل آخرتكم وكرامتكم وحقوقكم الطبيعية والمكتسبة التي ينبغي عليكم صيانتها والمحافظة عليها، ولا يليق بكم الضعف والحزن، وهما يزيدان في مصيبتكم ويعينان عليكم عدوكم، فإنكم الأعلون والفائزون ولكم وراثة الأرض، بما أنتم مؤمنون حقاً وصدقاً وعاملين بمقتضى الإيمان الحقيقي وخاضعين للقيادة الشرعية المؤهلة والأمانة على دينكم ومصالحكم ومتبعين لها، فالإيمان يلزم علاءكم؛ لأن فيه التقوى والصبر والثقة بالله ﷻ وقلة المبالاة بأعداء الله سبحانه وتعالى، وهي ملاك الفتح والظفر والغلبة على الأعداء. وإن نال منكم العدو ونزلت بكم الشدائد والمصائب والمحن والنكبات فهذه طبيعة الحياة الدنيا وسنتها، وقد نلت من العدو ونزل به مثلما نزل بكم، وتختلفون عنهم، أنكم ترجون من الله تبارك وتعالى ما لا يرجون. وقد جرت السنة الإلهية على تغير ميزان القوى ومداولة أيام الظفر والغلبة بين الأمم والشعوب والجماعات، فتارة تكون القوة والغلبة لهؤلاء وتارة لأولئك دون توقفها أو جمودها أو ثباتها على حال لصالح قوم دون الآخرين، وهذا التداول والتغير المستمر في ميزان القوى هو لمصالح عامة، ومما يبتلي

الله ﷻ به المؤمنين ولیمحصهم لیعلم الصادقین الثابتین علی الإيمان بصبرهم وجهادهم فی سبیل الله ﷻ وأعمالهم الصالحة، ویمیزهم من المنافقین الکاذبین ویخلصهم من الشوائب، ویتخذ منکم أئمة وقادة جدرین بما تسند إلیهم من واجبات ومهمات، وهو السبیل الذی یرتفع فیہ الکفر تدریجاً نحو التقلص والانکماش، حتی ینتهی الأمر فی خاتمة المطاف إلی محق الکافرین واستئصالهم بهلاکهم ومحو آثارهم تماماً، وعلیه: فإنّ الضعف والركون إلی الأعداء والظالمین والخضوع لإرادتهم، مخالف لمقتضى المنطق والفطرة والعقيدة الصحيحة والشرع الحنیف والخلق الحمید والسنن التاریخیة وغایة خلق الإنسان وکرامته ولا یلیق أبداً بالمؤمنین.

ب. أنّ التقوی والصدق والإخلاص عوامل مهمة وفعالة فی تحقیق الحتمیة التاریخیة الموعودة للمؤمنین المستضعفین فی الأرض، وذلك لأنّ التقوی والصدق والإخلاص موافقة للعقل والمنطق والفطرة والطبع الإنسانی السلیم وللسنن الإلهیة الكونیة والتاریخیة، وأنها من دواعی الحق والعدل والخیر والفضیلة والحریة والعزة والكرامة والصلاح والإصلاح والمقاومة والجهاد فی سبیل الله ﷻ والبعد عن الباطل والظلم والشر والرذیلة والفساد والتخلف والتحلل والإنحطاط والضعف أمام الأعداء والیأس والخضوع والاستكانة والقبول بالذل والهوان والاستعباد ونحو ذلك من الرذائل والصفات القبیحة، وهي الطریق إلی الحیة الإنسانية الطیبة والسعیة. وما سبق یمنح التقوی

والصدق والإخلاص قوة ذاتية فاعلة ومؤثرة في الاستقطاب والتوجيه، وهي صفات لا يمكن تحصيلها بدون المراقبة والمحاسبة والتدريب عليها «التربية» والصبر أمام الشهوات الحيوانية والملذّات الحسيّة وبهارج العالم المادي ومقاومة الأهواء الشيطانية.

ج. أنّ الحتمية التاريخية لا تأتي دفعة واحدة وبدون مقدمات وتراكم المكتسبات، بل تأتي كنتيجة لتراكم تدريجي لنتائج النضالات في التاريخ الطويل، وفي بقاع جغرافية عديدة، تتداول فيها الانتصارات مع الهزائم على المؤمنين، ويقدموا فيها الشهداء والتضحيات الجسمية، مثل: السجن والتعذيب والنفي والمطاردة والضييق في المعيشة والجروح ونحو ذلك، إذ يتوجه المؤمنون الصالحون طوال التاريخ وفي بقاع الأرض المختلفة لتوفير عوامل البقاء والإستمرار والصالح لدينهم وأنفسهم، والحصول على الانتصار والغلبة على عدوهم، وتتراكم نتائج نضالاتهم حتى تنتهي المسيرة التاريخية التكاملية للإنسان إلى هذه الحتمية التاريخية العظيمة، وهي: تلاشي الكفر وهلاك الكافرين، وظهور الإيمان الحق وورثة المؤمنين لكل الأرض والسيطرة عليها بشكل كامل وإقامة دولة العدل الإلهي العالمية، وعليه: فكل مقاومة للظلم والجور والطغيان يقوم بها المؤمنون الصالحون والمناضلون الشرفاء، في كل بقعة من بقاع الأرض وفي كل حقبة من حقبة التاريخ، تعدّ مساهمة إيجابية مباركة في الإعداد للظهور المبارك لصاحب العصر والزمان عجل الله تعال فرجه الشريف والوصول

إلى هذه الحتمية التاريخية في نهاية المسيرة التاريخية التكاملية للإنسان، التي هي قضاء إلهي حتمي وضروري ولازم، قول الله تعالى: ﴿وَرِيدٌ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهُمْ أَيْمَةً وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾^(١).

الجدير بالذكر والتنبيه: أن الحتمية التاريخية لا تعني أبداً إلغاء أو تعطيل القوانين أو السنن الحاكمة للظواهر الاجتماعية والتاريخية أو تعطيل لإرادة الإنسان واختياره، وتعليقها على الإرادة الإلهية بشكل مجرد ومستقل عن السنن التاريخية وإرادة الإنسان، وإنما تعني أنّ الظواهر الاجتماعية والتاريخية التي تصدر من إرادة الإنسان واختياره، تخضع لقوانين تعرف بالسنن التاريخية، مثلها في ذلك مثل الظواهر الطبيعية قاطبة التي تخضع تماماً للقوانين الطبيعية، وأن الظواهر الاجتماعية والتاريخية مثل الظواهر الطبيعية مقيدة بشروط توجب حدوثها إضطراراً وفق السنن «القوانين» الحاكمة عليها، أي: أنها تجري وفق نظام كلي دائم، وأنها مشروطة بما يتقدمها أو يصحبها من الظواهر والممارسات، فكل ظاهرة مرتبطة ومتعلقة بغيرها من الظواهر ارتباطاً محكماً، ويلاحظ هنا أمور عديدة، منها:

أ. أنّ هذه السنن لا تشدّ عن إرادة الله ﷻ ومشئته، وإنما تنتهي إليه وتخضع لإرادته وسلطانه ومشئته، وأن مفاعيلها موافقة

١. القصص: ٥

لحكمته البالغة، وتوصل الكائنات إلى غاية وجودها، فإن الوجود الكامل المطبق لواجب الوجود سبحانه وتعالى يقتضي أن يوجد من الممكنات كمّاً ونوعاً في عالم الإمكان كل ما كان وجوده موافق للمطلق من الحكمة والرحمة والقدرة ونحوها، على إنّ من مقتضيات الحكمة أيضاً الوجود التدريجي للممكنات حتى يبلغ عالم الإمكان ذروته وغاية كماله المقدّر له، وهو في المسيرة التاريخية خاتمتها، وفي عالم الدنيا نهايتها، وفي الدورة الكاملة للوجود الممكن عالم الآخرة.

ب. أنّ هذه السنن لا تقيّد إرادة الله سبحانه وتعالى وقدرته، فإرادته وقدرته فوق كل شيء وتعملان في كل شيء، وإنّ وسائل الخلق وطرقه متعددة، مثل: خلق آدم وحواء عليهما السلام من تراب وخلق سائر الناس من النطفة بواسطة التزاوج وخلق عيسى بن مريم عليها السلام من غير أب، وأخرج ناقة صالح عليها السلام وفصيلها من الجبل، وحوّّل عصا موسى الكليم عليها السلام إلى ثعبان عظيم، وردّ البصر ليعقوب «إسرائيل» بواسطة قميص ابنه يوسف عليها السلام وأعطى عيسى بن مريم عليها السلام القدرة على إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى وأن يصنع من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ﷻ، ومكّن آصف بن برخيا من نقل عرش الملكة بلقيس من صنعاء باليمن إلى القدس في فلسطين في أقل من لمح البصر، ونحو ذلك، على خلاف عقيدة اليهود الذين قالوا: أن الله سبحانه وتعالى قد عيّن كل شيء منذ بدء الخليقة، وأن كل ما يجب أن يحصل قد حصل، وأنّ الله سبحانه وتعالى لا يستطيع من الناحية

العملية فعل شيء أمام هذا الواقع، وبحسب لسان الرواية: «فرغ من الأمر ليس يحدث شيئاً» تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾^(١) أي: من مصاديق قولهم: أنهم يعتقدون عدم جواز النسخ في الشريعة ليثبتوا أن التوراة لا تقبل النسخ وأن دينهم لا يقبل التبديل، وعدم جواز البداء والخروج عن النظام في التكوين ليثبتوا أن لهم التقدم والسلطة على الأمم الأخرى وأن هذه الحالة الحضارية والتاريخية لا تقبل التغيير والتبديل وعبروا عن ذلك، بقولهم: (يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ)^(٢) أي: مقيدة فهو مسلوب القدرة والإرادة على إحداث التغيير في النظام الكوني والمسيرة التاريخية للإنسان على وجه الأرض، فدعا الله ﷻ عليهم، بقوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾^(٣) أي قيدت أيديهم، كناية عن عجزهم عما يريدون وما يمكرونه للحق وأهله، فلم ينالوا ما قصدوه ولم يدركوا ما أملوه وضربت عليهم الذلة والمسكنة، وكناية عن نقصانهم وعدم كمالهم لعظيم وقاحتهم وجراتهم منقطعة النظير على الله سبحانه وتعالى، وأبعدوا عن رحمة الله تبارك وتعالى وعدّبوا ولعنوا في الدنيا والآخرة بما قالوا، فإن جرمهم عظيم وبهتانهم كبير، يقول الشيخ محمد جواد مغنية: «ليس هذا دعاء

١. المائدة: ٦٤

٢. نفس المصدر

٣. نفس المصدر

على اليهود، بل إخباراً من الله سبحانه بأنهم في آخر الزمان سيكونون أذلاء ملعونين مخذولين بشهادة التوراة فقد جاء في سفر التثنية الأصحاح «٢٨» الفقرة «١٥» وما بعدها: إِنَّ الرَّبَّ خَاطَبَ الشَّعْبَ الْيَهُودِي بِقَوْلِهِ: إِنْ لَمْ تَسْمَعْ لَصَوْتِ الرَّبِّ إِلَهِكَ يرسل الرب عليك اللعن والاضطراب والزجر في كل ما تمتد إليه يدك لتعمله حتى تهلك وتفنى سريعاً من أجل سوء أفعالك»^(١) ويردّ الله سبحانه وتعالى على اليهود بقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾^(٢) أي: له غاية القدرة والإرادة التامة في خلقه، يقدم ويؤخر، ويزيد وينقص، وينوع في طرق ووسائل الخلق والتدبير، وله البدء والمشيئة في الخلق، فلا إجبار في عمل الله ﷻ، فليس محكوماً بالجبر الطبيعي، ولا بالجبر التاريخي، وإرادته فوق كل شيء وتعمل في كل شيء، ويبطش البطشة الكبرى بكل من يجرؤ على قدسه وكبريائه، ويفعل ما يشاء كيف يشاء متى يشاء وأين يشاء بإيجاد الأسباب الموجبة لما يشاء على ما تقتضيه حكمته البالغة ومشيئته النافذة، فلا حجر عليه ولا مانع يمنعه مما يشاء ومما يريد، وصيغة التثنية في اليمين «يداه» ليكون الإنكار لقول اليهود أبلغ، ولثبوت كمال القدرة والقيمومة المطلقة على الخلق أدلّ.

ج. أنّ الحتمية التاريخية لا تلغي إرادة الإنسان واختياره، وإنما

١. تفسير المبين، محمد جواد مغنية، صفحة ١٤٩

٢. المائدة: ٦٤

تعني بأنّ الصراع بين القوى المختلفة المتنافسة والتضامن اللذان ينبعان من إرادة الإنسان واختياره، يخضعان في حدوثهما ونتائجهما للسنن التاريخية، وتشكّل نتائجهما الظواهر الاجتماعية والتاريخية في المسيرة التكاملية للإنسان على وجه الأرض، وسوف تنتهي نتائجهما بشكلٍ حتمي وضروري ولازم إلى حاكمية الدين الإلهي الحق، وأئمة الهدى الذين هم في غاية الإيمان والتقوى.